

غازي الصوراني

مدخل إلى الفلسفة الماركسية.. المادية الجدلية والتاريخية

٢٠١٣/١٠/١٣

المحتويات

٤	تقديم.....
٨	الفصل الأول.....
٨	الفلسفة وتطورها التاريخي.....
٩	تعريف الفلسفة.....
٩	ما هي الفلسفة.....
١٠	نشأة الفلسفة.....
١١	الفلسفة اليونانية (الاعريقية) القديمة.....
١٢	فلسفة العصر الإقطاعي.....
١٣	مجاهاة الفلسفة الإقطاعية.....
١٤	المقدمات المادية والفكرية التي دفعت نحو ولادة عصر النهضة.....
١٤	الفلسفة الأوروبية الحديثة : عصر النهضة وتطور الفلسفة الأوروبية والتنوير حتى نهاية القرن الثامن عشر
١٦	المسار الفكري التاريخي لعصر النهضة.....
١٩	التنوير — الفرنسي والفلسفة الألمانية في القرن الثامن عشر.....
١٩	أولاً : التنوير الفرنسي.....
٢٠	ثانياً : الفلسفة الألمانية.....
٢١	المقدمات الأيديولوجية لظهور الماركسية.....
٢١	مصادر الفلسفة الماركسية.....
٢١	أولاً : الفلسفة الألمانية.....
٢٢	ثانياً : الاقتصاد السياسي الإنجليزي.....
٢٢	ثالثاً : الاشتراكية الطوباوية.....
٢٣	الفصل الثاني.....
٢٣	ظهور الفلسفة الماركسية ومصادرها ومكوناتها.....
٢٤	تمهيد.....
٢٥	المادية الجدلية.....
٢٥	المنهج الديالكتيكي الماركسي.....
٢٦	أيهما أسبق الوعي أم المادة؟.....
٢٧	أهمية القول بأولوية المادة.....
٢٧	المادة وأشكال وجودها.....
٢٨	- المادة.....
٣٠	- الحركة شكل لوجود المادة.....
٣٠	- الحركة مطلقة والسكون نسبي.....
٣١	مقولات المادية الجدلية.....
٣٢	الخاص والعام.....
٣٢	- ما هو الخاص والعام.....

- ٣٣ - جدلية الخاص والعام.....
- ٣٣ المضمون والشكل
- ٣٣ - ما هو المضمون والشكل
- ٣٤ -التناقض بين الشكل والمضمون.....
- ٣٤ الجوهر والظاهرة.....
- ٣٤ - ما هو الجوهر والظاهرة.....
- ٣٥ - جدلية الجوهر والظاهرة.....
- ٣٥ - أهمية مقولتي الجوهر والظاهرة.....
- ٣٦ السبب والنتيجة.....
- ٣٦ - ما هو السبب والنتيجة.....
- ٣٦ الضرورة والصدفة.....
- ٣٦ - ما هي الضرورة والصدفة؟.....
- ٣٧ - جدلية الضرورة والصدفة.....
- ٣٧ - أهمية مقولتي الضرورة والصدفة.....
- ٣٨ الامكانية والواقع.....
- ٣٨ - ما هي الامكانية والواقع.....
- ٣٩..... الفصل الثالث.....
- ٣٩..... نظرية المعرفة في المادية الجدلية.....
- ٤٠..... تمهيد :.....
- ٤١ - ما هي المعرفة؟.....
- ٤٢ - الممارسة نقطة انطلاق عملية المعرفة وأساسها.....
- ٤٢ - وحدة النظرية والممارسة.....
- ٤٢ - من التفرج (أو التأمل) الحي إلى التفكير المجرد.....
- ٤٣ - المعرفة الحسية.....
- ٤٣ - المعرفة المنطقية.....
- ٤٤..... المذهب الماركسي عن الحقيقة.....
- ٤٤ - موضوعية الحقيقة.....
- ٤٤ - من الحقيقة النسبية إلى الحقيقة المطلقة.....
- ٤٥ - الحقيقة الموضوعية : دياكتيك الحقيقة المطلقة والنسبية.....
- ٤٦ - الممارسة محك الحقيقة.....
- ٤٦..... الممارسة كأساس للمعرفة ومقياس للحقيقة.....
- ٤٧..... المكان والزمان.....
- ٤٧ - المفهوم الفلسفي عن المكان والزمان.....
- ٤٩..... الدور الحاسم للعمل في ظهور الوعي.....
- ٥٠..... اللغة والتفكير.....
- ٥٠..... نظرية التطور الديالكتيكية.....

٥١	الفصل الرابع.....
٥١	قوانين الديالكتيك.....
٥٢	تمهيد.....
٥٢	- قانون الانتقال من التبدلات الكمية إلى التبدلات النوعية.....
٥٥	- وحدة شكلي التطور: الشكل الارتقائي والشكل الثوري - القفزات.....
٥٦	- قانون وحدة وصراع المتناقضات.....
٥٧	- الخطوط الرئيسية للديالكتيك الماركسي عن قانون وحدة وصراع المتناقضات.....
٦٢	قانون نفي النفي.....
٦٢	- الأحكام الأساسية لهذا القانون.....
٦٥	الديالكتيك كنظرية للمعرفة.....
٦٦	- المنطق الديالكتيكي والمنطق الشكلي.....
٦٧	الفصل الخامس.....
٦٧	المادية التاريخية.....
٦٨	موضوع بحث المادية التاريخية.....
٧٠	- مقدمات ظهور المادية التاريخية.....
٧٠	١- المقدمات الاجتماعية - الاقتصادية.....
٧٠	٢- المقدمات الفكرية النظرية.....
٧١	- المقولات الأساسية للمادية التاريخية.....
٧١	التشكيل الاجتماعي - الاقتصادي.....
٧٣	الإنتاج المادي كأساس لوجود المجتمع وتطوره.....
٧٣	(١) مفهوم الإنتاج.....
٧٤	(٢) قوى الإنتاج في المجتمع.....
٧٦	(٣) علاقات الإنتاج.....
٧٧	ديالكتيك تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج.....
٧٨	قانون توافق علاقات الإنتاج ومستوى تطور القوى الإنتاجية:.....
٧٩	أثر علاقات الإنتاج على تطور قوى الإنتاج.....
٨٠	القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي.....

تقديم...

لم يكن انهيار الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية حدثاً طارئاً في تاريخ البشرية المعاصر، بل حمل في طياته مقدمات وعوامل انهياره عبر تراكمات بدأت مفاعيلها طوال عقود طويلة سبقت لحظة الانهيار.

لقد جاء ذلك الانهيار في لحظة تطويرية علمية واقتصادية واجتماعية وثقافية هائلة من لحظات التطور المعاصر لكوننا تم تتويجها في نظام العولمة الذي جاء بدوره انعكاساً لوصول النظام الرأسمالي الإمبريالي مرحلة الذروة في تطوره ومحاولاته الهيمنة على مقدرات شعوب العالم عموماً والشعوب الفقيرة في بلدان العالم الثالث ومن بينها بلدان وطننا العربي خصوصاً.

وفي مثل هذه الظروف والمتغيرات خلال العقدين الماضيين ، كان من الطبيعي أن تتعرض القوى والأحزاب الشيوعية واليسارية العالمية إلى حالة من التراجع والارتباك الذي وصل إلى شكل من أشكال الفوضى الفكرية ، خاصة تجاه الموقف من الماركسية ، لكن بشاعة الاستغلال الرأسمالي في مرحلة العولمة الراهنة، أكدت من جديد على عودة الماركسية ليس فقط كنظرية ثورية تلبى تطلعات ومصالح العمال والفلاحين الفقراء وكل الكادحين والمضطهدين ، بل أيضاً عودتها كنظرية علمية متجددة قابلة للتطور وفق ظروف عصرنا الراهن ومتغيراته بما يخدم خصوصية هذا الواقع الاجتماعي الاقتصادي في هذا البلد أو ذلك ، من هنا يبرز أمامنا سؤال ما هي الفلسفة الماركسية ؟ الذي ما زال متداولاً - بهذه الدرجة أو تلك من الجدية والوعي أو التراجع أو الارتباك - بين معظم رفاقنا في جميع أحزاب وفصائل اليسار العربي، وما زال النقاش حول هذا السؤال محمولاً بالشكوك أو اليقين العاطفي البعيد - بمسافة نسبية بين هذا الرفيق أو ذلك - عن امتلاك الوعي بالفلسفة وبالنظرية الماركسية وقوانينها ومقولاتها وجوهرها المادي النقيض للفلسفة المثالية ولكل الأفكار والمفاهيم الغيبية أو الميتافيزيقية، ما يعني ان أحزاب وفصائل اليسار العربي تعيش عموماً حالة من الارتباك الفكري أو فوضى الأفكار، عززت وكرست - حتى اللحظة - نوعاً من التفكك أو التراجع في هويتها الفكرية، لحساب "هويات" أو أفكار طارئة توفيقية وملتبسة أو شكلانية ذات طابع وطني أو قومي مبسط أو مبتذل أو ديني أو ليبرالي مشوه ، على الرغم من ان الماركسية ، نظرية علمية لا تحتل أي شكل من أشكال التوفيق مع "الهويات" الأخرى المشار إليها.

ولذلك فإن دروس وعبر الالتزام الخلاق بالماركسية ، كهوية فكرية ناظمة لأحزابنا وفصائلنا، تتجلى في ضرورة الوعي بالنظرية والتفاعل معها من خلال وعي مكونات الواقع الاقتصادي الاجتماعي والسياسي والثقافي في هذا البلد العربي أو ذلك ، كعملية جدلية في إطار المنظومة الفكرية والسياسية والتنظيمية المتكاملة، بحيث لا يجوز للكادر أن يكتفي فقط بقراءة العديد من الكتب الماركسية دون أن يتعاطى مع القضايا الأخرى ، السياسية والتنظيمية ، والمجتمعية ، والجماهيرية برؤية شمولية مترابطة ، فalcراءة أو التثقيف الحزبي ، على أهميته وضرورته وأولويته القصوى ، إلا أنه يظل

طريقاً أو بعداً أحادياً لا يمكن ان يحقق تأثيره أو نتائجه المأمولة بدون التفاعل مع كافة القضايا الأخرى بصورة شاملة و مترابطة ، بحيث يمكن عندئذ الحديث عن تحول النظرية الماركسية إلى منهج عمل ، وإلى سياسات وأوضاع وهياكل تنظيمية متلائمة ومتطلبات وأهداف هذا الحزب أو الفصيل أو ذلك، وبدون ذلك تظل الماركسية مجرد لافتة حمراء أو شعاراً مرفوعاً محكوماً للشكل أو المظاهر بعيداً عن الجوهر الحقيقي الذي توخته أو استهدفته.

وهنا تتبدى أهمية طرح السؤال مجدداً: ما هي الماركسية؟ وجوابنا الصريح والواضح رغم كل ما يدور من نقاشات موضوعية او مقترحة حول هذا الموضوع، ان الماركسية هي نظرية علمية، بمعنى انها تتكون من مجموعة من القوانين والمقولات والفرضيات، وهي أيضاً - وهذا هو المهم - تنطوي على المنهج: أي الطريقة أو الأسلوب ، وهما الأداة الأساسية لكل علم من العلوم، وفي هذا الجانب نؤكد على "أن الماركسية ليست "علماً" بالمعنى المعتاد للكلمة، وإلا لكفى أي انسان- كما يقول الصديق البروفيسور جيلبير الأشقر - أن يدرسها في مدرسة أو جامعة ما ويتخرج بشهادة في "الماركسية" وهو أبعد ما يكون عن الماركسية الجوهرية".

ومن ذلك المنطلق الثوري بامتياز تتبنى الماركسية وجهة كافة المضطهدين: الطبقة العاملة بوصفها الطبقة المنتجة غير المالكة، والنساء باعتبارهنّ الجنس المضطهد والأمم والشعوب المقهورة، وهلمّ جراً... وهذه نقطة أساسية في التنقيف الثوري لسبب بديهي هو التالي: قبل أن يتعلم المناضلون الماركسية كعلم، ولكي يستوعبونها حقاً، لا بد لهم بادئ ذي بدء أن يتلقنوا منطلقاتها الأخلاقية ويجعلونها منطلقاتهم، وإلا فما قيمة "المناضل" الذي يدعي الثورية وحفظ الشعارات الماركسية عن ظهر قلب ولا تزال عادات التعالي الإجتماعي إزاء الأتعس منه حظاً، والذكورية والعنصرية والشوفينية تخيم على أطباعه. فما نفع "المادية الديالكتيكية والتاريخية" إذا درسها ذلك "المناضل" وهو لم يتخلص من رواسب سلبيات تربيته الإجتماعية التي تتناقض مع مبادئ ومفاهيم الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة ؟

إن المنطلقات والمفاهيم التربوية والأخلاقية الماركسية لا يمكن دراستها كأى "علم" بل فقط كمبادئ أخلاقية يجب التحقق من فهمها ليس عن طريق المسابقات الخطية، بل في الممارسة داخل الحزب أو الفصيل، وعلى مستوى الحياة اليومية.

وهنا لا بد من التأكيد على الكيفية التي نتعاطى بها مع المنهج¹ الجدلي الماركسي في الممارسة الحياتية، ليس من أجل التخلص من الرواسب الاجتماعية الرجعية السائدة، بل أيضاً من أجل مراكمة ووعي منطلقات أخلاقية تتفاعل بصورة جدلية خلاقة مع إستراتيجية أحزابنا وفصائلنا اليسارية في

¹ تعريف المنهج : المنهج هو الطريق الذي يؤدي بنا إلى الهدف، والمرتكز على مجموع القواعد المنبثقة من التجربة الحياتية والمعارف العلمية ، فالمنهج الجدلي للمعرفة يتطلب تناول كل الظواهر في العالم المحيط بنا في ترابطها وتفاعلها وتطورها الدائم ، أما المنهج الميتافيزيقي فيتناول كل ظاهرة بصورة منفردة وبمعزل عن ترابط وتفاعل الظواهر فيما بينها، وعند تناول التغير والحركة يغفل المنهج الميتافيزيقي أبعاد التطور الحقيقي الموضوعية، ويفسر العمليات أو الحركة في الطبيعة والمجتمع تفسيراً غيبياً. "الدائرة الثقافية"

الوطن العربي، ورؤيتها الثورية التغييرية من أجل التحرر الوطني والديمقراطي والعدالة الاجتماعية بأفاقها الاشتراكية الوطنية والقومية والأممية ، ما يستدعي بالضرورة تعميق الوعي في صفوف الرفاق بالنظرية الماركسية وأدبياتها ومسارها التطوري المعرفي والسياسي منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا .

فالمنهج الجدلي المادي شأنه شأن منهج العلم، يهدف لتطوير النظرية لكي توجه الممارسة الحياتية التي بدورها تطور وتغني النظرية، وهذا بالضبط ما قصده "كارل ماركس" بقوله "إنني لم أضع إلا حجر الزاوية في هذا العلم " ما يؤكد على أن نظرية المعرفة الماركسية هي جزء من صيرورة حركة الحياة ومتغيراتها التي لا تعرف الجمود أو التوقف، وهو ما يعني بوضوح شديد رفضنا التعاطي مع الماركسية في إطار منهج أو بنية فكرية مغلقة أو نهائية التكوين والمحتوى، بل يتوجب علينا ان نتعاطى معها كمنهج أو بنية فكرية تتطور دوماً مع تطور الانجازات والاكتشافات العلمية في جميع مجالات الحياة وحقائقها الجديدة، إذ أن الماركسية تكف عن ان تكون نظرية جدلية إذا ما تم حصرها في إطار منهجي منغلق أو في ظروف تاريخية محددة.

إذن الماركسية لها منهجها ، الذي هو اداة لكشف وتحليل الظواهر الاجتماعية والطبيعية، يفرض على كل ماركسي ان يتابع بروح نقدية استكشافية عقلانية كافة التطورات والصراعات الاجتماعية، لتقديم الرؤى والبرامج وآليات العمل الهادفة الى تغيير وتجاوز الواقع المحكوم من قبل الطبقات المستغلة في هذا البلد او ذاك لحساب تحقيق أهداف المضطهدين وكل الكادحين والفقراء في الانعتاق والتحرر والعدالة الاجتماعية بأفاقها الاشتراكية.

وفي هذا السياق، فإننا نشير إلى أن أياً من قوى اليسار العربي، لم تنجح تاريخياً بتعميم وتكريس منهاجها الأيديولوجي ومنطلقاتها التربوية الأخلاقية، وثقافتها العقلانية على قواعدها التنظيمية من الناحية الجوهرية، وبالتالي ظلت الأيديولوجيا بوجه عام غير ممأسسة تنظيمياً ومتناثرة ومحصورة أو محاصرة أو هامشية مهملة ، ولم ترتق بأفضل أحوالها لتشكل ناضماً للحياة التنظيمية او حالة فكرية جماعية أو قاعدة واسعة لوعي نظري منظم، الامر الذي يستدعي من هذه القوى ، أن تبدأ جدياً بتفعيل البعد الأيديولوجي باعتباره أحد أهم مرتكزات الحزب وصيرورته الراهنة والمستقبلية، عبر الالتزام بمأسسة النشاط الفكري في الازدهان بما يضمن إحياء وتجديد إطار التفاعل الجاري بشأن إعادة الاعتبار للنشاط التثقيفي لمنظمات الحزب القيادية والكادرية والقاعدية، كبوصلة ومرجعية أولى ومرافقة ضمن مسيرة النضال الشاملة ولتحقيق أهداف الثورة الوطنية الشعبية التحررية الديمقراطية بأفاقها الاشتراكية في كل بلدان وطننا العربي.

غازي الصوراني
أكتوبر ٢٠١٣



الفصل الأول



الفلسفة وتطورها التاريخي



تعريف الفلسفة :

الفلسفة ليست حباً للحكمة فحسب _____ ب

إنها في المقام الأول حب للمعرفة، وهى قبل كل شيء عمقاً للإنسان من الظواهر والأحداث السياسية والاجتماعية والطبيعية من حولها ..
ه .. الإنسان الحقيقي هو الموقف، الإنسان اللامبالي، إنسان لا يسبغ تحقلاً للاحترام ..
من ناحية أخرى إن الموقف فالمقاوم للظلم الطبقى الاستبداد ومقاومة المحتل هو موقف اعيشكلمسقبلاً لأهدا فتحررية والديقراطية .. وبدون ذلك العيش كلها عفوي أو الطليعي لا يتحقق رد الفعل لمقاومة الاستبداد أو للاحتلال أو الظلم الاجتماعي ..
إننا لو عيبنا الظلم الاجتماعي بالاستغلال هو المقدمة الضروية لعملية التغيير الاجتماعي ..
إنك لا شك هذا الوعيب هو ففلسفة يشكلمباشر أو غير مباشر، إننا لا نتحاقطو عيبنا العمال لحزب بهو شكلمتطور للموقف فالسيفيو انتقالهم من شكلها البسيط إلى شكلها جوهرها الطليعي، هنا يتحول الوعى - عبر المعرفة - إلى إرادة هو اعية من أجل التغيير الثوري الديمقراطي.

إننا لو وظيفة الجوهرية لكلمفكر أو فلسفة هي الكشف عن معضلة الواقع عبر نقد هانقدوا اعيانها إلى مكوناتها، لمعرفة قوا انيزها ..
ومن ثم العمل على إزاحة المعضلة وتغيير الواقع ..
من هنا فالحديث عن نهاية الفلسفة، هو حديث عن نهاية الفكر، ونهاية الوظيفة الجوهرية المرتبطة باستشراف المستقبل وتحليله واقعه وتغييره، وفي هذا السياق، نقول، إن الحديث عن نهاية الفلسفة قد لا زمتار يخها منذبديتها، ويتو اجدجنبنا إلى... جنب معالديتها لبايات، إذ فكلمحديثنا لنهاية هو بداية لشئ عي، وما، وكلمحديثنا لبايات هو نهاية لأمر آخر....
أليس المفكر هو من يهوى صناعة السؤ الوحرارة الاستفهام؟ كذلك صناعة السؤ اليسئلز ما لإحاطة بالكثير من الأجوبة ...

وهذا لإحاطة أم لا تكونتوفر قبل المعنى النسبي لدرى فاقبوا أصدقائهم أن جعلت عميق معارفهم في خدمة ممارساتهم من أجل التغير، فبقدر ما يمتلك المرء من أجوبة، كذلك يكون " قدر " الأسئلة التي يطرحها.

ما هي الفلسفة

إن التعريف الذي نتوخاه للفلسفة يقول بأن الفلسفة هي مجموعة من النظرات الشاملة إلى العالم والطبيعة والمجتمع والإنسان عبر التلازم الجدلي بين العام والخاص.

- إنها مجمل الآراء والتصورات عن القضايا العامة لتطور الوجود والوعي (علاقة الفكر بالوجود).
- هي شكل من أشكال الوعي الاجتماعي (أشكال الوعي الاجتماعي هي: العلم - الفلسفة - الفن - الأخلاق - السياسة - الدين كلها مترابطة عضوياً).

هناك مستويين من الوعي الاجتماعي : ١ - مستوى عفوي - اعتيادي ٢ - مستوى عميق -

طليعي (أيدولوجي).

الأول : المستوى العفوي (الاعتيادي):

أو السيكولوجي الاجتماعي وهو يمثل وعي الناس للأحداث والوقائع والظواهر السطحية والانفعالات والأمزجة ويرسخ في العادات والتقاليد والأعراف لدى جميع الفئات الاجتماعية والطبقات والأمم، هذا

المستوى يعبر عن العلاقات والمصالح اليومية والقريبة للناس بارتباطها بالبعد التاريخي أو التراثي المتراكم بكل معطياته السالبة والإيجابية .

الثاني : المستوى الطبيعي(الثقافي الايديولوجي):

ويعني تعمق الوعي بشكل نوعي في سبر أغوار الوجود الاجتماعي ، فالأيديولوجيا تعكس الجوانب الداخلية الهامة من الحياة الاجتماعية - قوانينها وقواها الاجتماعية المحركة ونزعات تطورها ، فالوعي على المستوى الأيديولوجي يعكس الوجود الاجتماعي في النظريات والأفكار والمذاهب والمفاهيم وهو يصاغ بتفكير وترو عميقين من قبل ممثلين للطبقة المعنية (إنهم أيديولوجيو الطبقة الأكثر فعالية وقدرة على " الإبداع " بما يحقق نزوعهم نحو السيطرة أو الأنعتاق).

أخيراً ..الفلسفة في رأينا هي أهم شكل من أشكال الوعي الاجتماعي (تتعاكس فيه حصيلة التقدم العلمي والاجتماعي وكافة التناقضات الاجتماعية) إنها كما يقول ماركس زبدة عصرها الروحية وهي روح الثقافة الحية ، وبهذا المعنى لا يمكننا عزل الفلسفة عن معطيات التحرر الوطني والديمقراطي النهضوي العربي ، كما لا يمكن عزلها عن الواقع السياسي الاجتماعي الاقتصادي الذي نعيشه اليوم ، لأن الترابط بين الفلسفة والسياسة والتاريخ أصبح حالة موضوعية في عصرنا الراهن على وجه الخصوص.

نشأة الفلسفة:

•نشأت الفلسفة القديمة وتطورت في ارتباط وثيق بالتصورات الأسطورية والخيالية حول الوسط المحيط بالإنسان (أصل العالم نار -ماء-فراغ) هيراقليطس - طاليس وغيرهم .

*وجهها الفلسفة:

الوجه المثالي ، والوجه المادي:

كل منهما يحاول الإجابة عن المسألة الأساسية في الفلسفة!!..

علاقة الفكر بالوجود أو علاقة الروح بالطبيعة ... إنه السؤال الخالد أيهما أسبق إلى الوجود ؟

عبر الإجابة على هذا السؤال يتحدد موقفنا مع المثالية أم مع المادية ومنهجها.

* المفكر المادي:

هو الذي ينظر إلي العالم المحيط بالإنسان (شمس ونجوم وأرض وبحار وكائنات حية) على أنها أشياء موجودة موضوعياً ، أي أنها غير مرهونة في وجودها بالوعي البشري ، من ناحية أخرى ترى المادية أن العالم الموضوعي هو عالم سرمدى ، غير مخلوق وأنه هو علة وجود الوعي ، لا العكس (أي أنه سبب الوعي).

* المفكر المثالي:

يقول بأن الوعي (أو الفكر أو الروح أو الإله لافرق) هو الأسبق على الوجود . إنه ينكر أن يكون وعي الناس انعكاساً للواقع الموضوعي . (مثالية ذاتية ، وموضوعية) . بالرغم من موضوعية الرؤية

المادية للعالم، إلا أننا لا ندعو إلي الوقوف أمام هذه المسألة التي قد تثير كثيراً من الجدل و التساؤلات والخلافات دون أي طائل في هذه المرحلة بالذات، نحن مع المنهج العلمي الجدلي ومع الموقف الموضوعي تجاه كل ما تتعرض له مجتمعاتنا العربية في كل جوانبها الحياتية من أجل الوصول عبر هذا المنهج إلي المواقف والتطبيقات التي نتطلع إليها فيما يتعلق بالتححر السياسي والاقتصادي والعدالة الاجتماعية والديمقراطية والنهوض بإعتبار هذه القضايا إطارنا العملي المباشر في مواجهة الواقع من حولنا وفي تطبيق وعينا الفلسفي أو المنهجي أو السياسي على هذا الواقع ، هذا هو المقياس.

الفلسفة اليونانية (الاعريقية) القديمة

برزت الفلسفة اليونانية في القرنين السادس والخامس ق.م و إستمرت حتى القرن الرابع ق.م ثم برزت بعدها الفلسفة الرومانية في أواخر القرن الثاني ق.م حتى القرن السادس الميلادي .
إن افضليه الفلسفة الإغريقية إنها كانت الرائدة في تحرير الفكر عبر تساؤلاتها عن طبيعة الواقع وحقبة العقل و العديد من القضايا ذات الطابع المعرفي الشمولي ، و بقدر ماكانت عظمة الاغريق قائمه على ضوء الفكر ، إستندت روما- التي وضعت فلسفه موازيه للفلسفه اليونانيه الى " عظمة القوة".

في تعرضنا للفلسفة اليونانية يبرز كل من افلاطون و ارسطو كمحور اساسي لهذه الفلسفة ، آخذين بالاعتبار و التقدير دور العديد من الفلاسفة الاغريق الذين وضعوا الاسس التي إنطلق منها كل من افلاطون و ارسطو ، من هؤلاء " طاليس " الذي قال إن جميع الموجودات صدرت عن مادة رطبة (الماء البارد) ، وتلميذه " انا كسمندر " الذي كان ماديا إهتم بحقائق الكون وأصل الحياه ، ثم فيثاغورث -المولود في إيطاليا (٥٨٠-٥٠٠ ق.م) الذي آمن بتناسخ الارواح ، و إشتغل بالحساب و الهندسة ، و هو القائل بان " هذا العالم كرة ناريه حيه " و هيراقليطس " ذلك الفيلسوف المادي الذي اعلن ان " بداية هذا الكون من النار وان هذا العالم سيظل ناراً حيه تنطفئ بمقدار و تشتعل بمقدار " و انا كساغور" الذي قال "ان الشمس جسم مادي و أن العالم يتألف من عدد لا متناه من الدقائق الصغيره و ان الحياه عمليه دائمه و متصله و مستمرة ، إتهمه" ديمقراطيو اثينا الارستقراطيين بالإلحاد و طردوه منها، بعد ذلك برزت"السفسطائيه" كظاهرة فلسفيه لعصر ديمقراطية العبيد في اثينا ، حيث كان الانسان عند السفسطائيين" معيار الأشياء جميعاً ، وشككوا في التصورات الدينية " ثم " ديمقريطس " الفيلسوف المادي الذي قال " ليس في هذا العالم الا الخلاء والذرات تتألف منها كل الموجودات "، وارجع ظهور الكائنات الحيه الى الظروف الطبيعیه عبر توحد الذرات ، كان نصيراً للديمقراطية العبودية ، بعكس " سقراط " رائد الفلسفة الارستقراطية النخبوية الذي وقف بعناد ضد الديمقراطية في اثينا بإعتبار انها تؤدي -كما يقول- الى الفوضى عبر تحكيم الجماهير الدهماء في هذه العمليه ، ونتيجة موقفه حكم بالموت رافضاً طلب الرحمة من الجماهير ، من أهم اقواله " أي شيء اشد سخريه من هذه الديمقراطية التي تقودها الجماهير التي تسوقها العاطفة " أليس من الغرابة ان يحل مجرد العدد

محل الحكمة " ، وجاء افلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) من بعده كتلميذ نجيب لأستاذه ليستكمل الرسالة في العدا للديمقراطية وفق اسس مغايره ، انه فيلسوف الفردية الأرستقراطية الذي نشأ في جو ارستقراطي مريح.

"ان التغيير عند افلاطون معناه الاضمحلال ، بينما الكمال معناه انعدام التطور " لقد اراد مجتمعاً ثابتا (اسبرطيا لا يتحرك بالديمقراطية كما في اثينا) يتولى ادارته نخبة مختارة من الارستقراط الذين يمتلكون قدره على التفكير و التأمل للإشراف على ضبط "المجتمع الثابت " الذي يجب ان تقتلع منه تلك القوى التي تعمل من اجل التغيير ، هذه الافكار طبقتها الأرستقراطية الاوروبية فيما بعد طوال اكثر من الف عام تحت راية الكنيسة او النخبة اللاهوتية ، وهذه الافكار موجودة نسبيا في تراثنا العربي حيث نلاحظ تعايش الوعي العفوي مع مفهوم "حالة الثبات " عبر امثلة كثيرة منها " الذي ينظر الى اعلى تقطع رقبتة " و " العين لا تعلق على الحاجب " و العديد من الامثال التي تدعو الى تكريس حالة الثبات ضد التغيير.

فلسفة العصر الاقطاعي

•ظهرت هذه الفلسفة بعد استقرار وتفعل دور الكنيسة في الغرب خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، وتعاظمت هيمنتها في القرن السادس بعد الغاء الافلاطونية و اعلان المسيحية دين الدولة الرسمي عام ٥٢٩م(بوستينيانوس).

•هيمنت الايديولوجية الدينية على الحياة الفكرية في هذا العصر حيث تحولت الفلسفة الى خادمة للاهوت عبر طابعها الرجعي التصوفي وكان مبررها ان الحكمة والمعرفة تتم فقط عبر الوجد الصوفي ورفض التجربة او طريق العقل ، لقد انحطت الفلسفة في هذا العصر الى درك التصوف والسحر والاساطير ، وارتدى صراع الطبقات فيه شكل خافت من الصراع الديني .

ابرز فلاسفة هذا العصر : افلوطين (٢٠٥-٢٧٠م) الذي قال ان التطور يبدأ بالالهي الذي لا يمكن الاحاطة به ويجب الايمان به.

او غسطين(٣٥٤-٤٣٠م) الذي تأثر بالافلاطونية الجديدة (التي وضع اسسها افلاطون) واعتنق المسيحية فيما بعد ، من اقواله "الانسان يملك الحرية ولكن كل ما يفعله بإرادة مسبقة من الله"، "الحياة الدنيوية سقوط وانفصال عن الازلي واتصال بالناقص الجزئي"، " اننا نعرف الله لا بالتفكير بل بالإعراض عن التفكير" ، هذه المواقف تم تطبيقها عمليا في هذا العصر بما يخدم الكنيسة والامراء ، بحيث تحولت الفلسفة الى "علم" جنوني بالغيب وامتزاج الايمان بالسحر.

بعد ذلك ظهرت الفلسفة السكولائية (المدرسية) (scholasticism) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر المتأثرة بالافلاطونية المحدثة ومثلت التيار الرئيسي في فلسفة المجتمع الاقطاعي ، كان السكولائيون أعضاء مؤثرين في الرهبنة المسيحية وكانوا اعضاء في محاكم التفتيش ، من اهم مفكري هذا التيار توما الاكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) الذي خاض صراعا حادا ضد الرشدية حينما كان أستاذا

في جامعة باريس، قال ان الايمان والعقل يشكلان وحدة منسجمة ولا يختلفان بعكس ابن رشد ، "الصورة عند توما الأكويني توجد بدون المادة ، اما المادة فلا يمكن ان توجد بدون الصورة (بدون الله) ، وان الوحي الإلهي لا يتضمن أي خطأ وفي حالة وجود التناقض فان المخطيء هو العقل لا الايمان او الفلسفة لا اللاهوت وان الحاكم يجب ان يخضع للسلطة الروحية التي يقف على رأسها المسيح في السماء والكنيسة على الأرض " لقد كانت "التوماوية" بمثابة المرتكز الفكري للكنيسة الكاثوليكية المهيمنة على عقول الناس في ذلك العصر .

مجابة الفلسفة الإقطاعية

بدأت المجابهة عبر عدد من المفكرين كان من أبرزهم العالم الفيلسوف روجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٤م.)؛ الذي طرح فكراً نقدياً " للفلسفة الإقطاعية عبر إعلانه أن الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق التي تعترض المعرفة " وأهم هذه العوائق عند بيكون: "رواسب الجهل وقوة العادة والتبجيل المفرط لمفكري الماضي، وأن أفكارنا الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة".

لقد كانت هذه الآراء المعول الأول في هدم المعطيات الفكرية لهذا العصر بالرغم من أنها كانت سبباً في سجنه، وكانت أيضاً أحد مقومات المذهب البروتستنتي الذي يرفض القديسين والعذراء والملائكة الموجودة لدى الكاثوليك والأرثوذكس، حيث أكد أصحاب هذا المذهب أن " النعمة الإلهية تصل إلى الإنسان من عند الله دون وساطة الكنيسة " هذا الموقف جعل من الكنيسة والبابا - فيما بعد - شيئاً شكلياً وساهم في تحرير الإنسان من الأغلال الفكرية للعصر الإقطاعي.

إن المغزى الذي ندعو إلى استخلاصه من هذا الاستعراض لبعض جوانب الفلسفة عموماً وفي العصر الإقطاعي على وجه الخصوص يكمن في امكانية توفير بعض المقومات الفكرية اللازمة لعقد المقارنة الموضوعية لبعض أوجه السمات الفكرية والثقافية والاجتماعية المتردية في وطننا العربي التي تتقاطع أو تتشابه في جوهرها أو في نتائجها مع المقومات الفلسفية والفكرية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا في العصر الإقطاعي ، الذي تميزت فلسفته بأنها:

١. انطلقت من فرضيات مذهبية جامدة لا يمكن إثباتها بالتجربة أو بالملاحظة .
٢. لم تهتم بالعلوم أو الوقائع الحياتية .
٣. لم تنطلق إلى البحث عن الحقيقة، فقد كان هم معظم المفكرين في هذه المرحلة إثبات صحة العقائد الدينية لتثبيت مصالح ملوك أوروبا والكنيسة ورموز الإقطاع .

إن الفكر الإقطاعي لم يهتم ببحث المسائل المطروحة بل زج في إطار النتيجة المسلم بها، وكان لابد للفلسفة القائمة على مثل هذه الأسس أن تسير في درب الانحطاط في ظروف بدأ فيها يتعزز العلم ليتحول إلى ميدان بحث مستقل نسبياً، وهذا ما حدث عندما بدأ أسلوب الإنتاج الجديد يتشكل في أحشاء المجتمع الإقطاعي مفسحاً الطريق لعصر النهضة وللديمقراطية البرجوازية بعد أن تم كسر هيمنة الكنيسة على عقول الناس.

المقدمات المادية والفكرية التي دفعت نحو ولادة عصر النهضة

قلنا ان الفكر الذي ساد في المرحلة السابقة (الإقطاعية) لم يهتم ببحث المسائل المطروحة بما يدفع نحو الانتقال من حالة الجمود أو الثبات إلى حالة النهوض والحركة الصاعدة ، ولم تسفر تلك المرحلة (التي ما زلنا نعاني من رواسيها في وطننا العربي حتى اللحظة) عن نتائج إيجابية تذكر سواء في الفلسفة أو في العلم ، ذلك أن "المفكرين" لم يتطلعوا إلى البحث عن الحقيقة بل عن وسائل البرهان على صحة العقائد الدينية خدمة لمصالح الملوك والنبلاء الإقطاعيين ورجال الدين .

كان بداية ذلك التشكل عبر إطارين كان لا بد من ولادتهما مع اقتراب نهاية تلك المرحلة وهما : إطار التعاونيات ، وإطار المانيفاكتوره التي كانت البدايات التمهيدية نحو ولادة المجتمع الرأسمالي حيث ظهرت المانيفاكتورات في المدن الإيطالية أولاً ثم انتقلت إلى باقي المدن الأوروبية . في هذه المرحلة الانتقالية ، نلاحظ تطوراً ونمواً للمدن وظهور التجار والصناعيين وأصحاب البنوك ، والاكتشافات التكنولوجية المغازل الآلية - دواليب المياه - الأفران العالية ودورها في صناعة التعدين واختراع الأسلحة النارية والبارود والطباعة في أواسط القرن الخامس عشر . فيما بعد تم إحراز نجاحات أخرى عززت تطور أسلوب الإنتاج الرأسمالي الصاعد والمنتشر في أوروبا، وارتبطت هذه النجاحات بعناوين كثيرة ضمن محورين أساسيين:

١. الكشوفات الجغرافية مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر ، خصوصاً اكتشاف أميركا والطريق البحري إلى الهند ورحلة " ماجلان " حول الأرض وبالتالي إرساء أسس التجارة العالمية اللاحقة .

٢. ترافق كل ذلك مع تغيرات ثقافية وفكرية رحبة كسرت الجمود الفكري اللاهوتي السائد ، وأدت إلى " تهاوي استبداد الكنيسة في عقول الناس " وإخفاق وتراجع نفوذ الكنيسة الاقتصادي والسياسي ، وظهور مجموعات من المثقفين البرجوازيين قطعوا كل صلة لهم بالكنيسة واللاهوت الديني المذهبي ، وارتبطوا مباشرة بالعلم والفن ، وقد سمي هؤلاء بأصحاب النزعة الإنسانية " HUMANISM " ، (وهو مصطلح نوره هنا لأهميته إذ أنه دل آنذاك على الثقافة الزمنية في مواجهة الثقافة اللاهوتية أو السكولائية الرجعية) وقد أخذ هؤلاء المثقفون من أصحاب النزعة الإنسانية على عاتقهم معارضة ونقض المفاهيم والعلوم الدينية الكنيسية عبر نشر علومهم الدنيوية التي كانت بالفعل أقرب إلى التعبير عن مزاج البرجوازية الصاعدة آنذاك.

الفلسفة الأوروبية الحديثة : عصر النهضة وتطور الفلسفة الأوروبية والتنوير حتى

نهاية القرن الثامن عشر

ولادة هذا العصر لم تكن عملية سهلة في المكان أو الزمان ولم تتم أو تظهر معالمها دفعة واحدة ، أو اتخذت شكل القطع منذ اللحظة الأولى. إذ أن هذا الانقطاع لم يأخذ أبعاده في الانقسام التاريخي

إلا بعد أربع قرون من المعاناة وتحولات ثورية في الاقتصاد والتجارة والزراعة والمدن كانت بمثابة التجسيد لفكر النهضة والإصلاح الديني والتنوير من جهة والتلاحم مع هذه المنظومة الفكرية الجديدة من جهة أخرى ، تمهيداً للثورات السياسية البرجوازية التي أنجزت كثيراً في هولندا في مطلع القرن السابع عشر، وفي بريطانيا من ١٦٤١_ ١٦٨٨ ، ثم الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩ _ ١٨١٥ ، والثورة الألمانية في منتصف القرن التاسع عشر .

لقد كان نجاح هذه الثورات بمثابة الإعلان الحقيقي لميلاد عصر النهضة والتنوير أو عصر الحداثة ففي هذا العصر انتقلت أوروبا الغربية من مجتمع الطبيعة المحكوم بنظرية الحق الإلهي إلى المجتمع المدني ، مجتمع الديمقراطية والثورة العلمية الكبرى التي أحدثت زلزالاً في الفكر الأوروبي الحديث كان من نتائجه الرئيسية " انتقال موضوع الفلسفة من العلاقة بين الله والعالم، إلى العلاقة بين الإنسان والعالم وبين العقل والمادة.

وفي هذا الجانب ، نشير إلى أن الفكر الذي ساد في المرحلة السابقة (الإقطاعية) لم يهتم ببحث المسائل المطروحة بما يدفع نحو الانتقال من حالة الجمود أو الثبات إلى حالة النهوض والحركة الصاعدة ، ذلك أن "المفكرين" لم يتطلعوا إلى البحث عن الحقيقة بل عن وسائل البرهان على صحة العقائد الدينية خدمة لمصالح الملوك والنبلاء الإقطاعيين ورجال الدين.

كان لا بد لهذه الفلسفة القائمة على مثل هذه الأسس أن تسير في درب الانحطاط في ظروف بدأ فيها يتعزز العلم مع بدايات تشكل أسلوب أو نمط الإنتاج الجديد في أحشاء المجتمع الإقطاعي ما بين القرنين الرابع والخامس عشر، وقد كانت بداية ذلك التشكل عبر إطارين : إطار التعاونيات ، وإطار المانيفاكتوره^٢.

٢ المانيفاكتورة هي الشكل الكلاسيكي للتعاون القائم على أساس تقسيم العمل، وقد كانت سائدة من سنة ١٥٥٠ وحتى ١٧٧٠، وهي تنشأ:

١. إما بتجميع حرف مختلفة يؤدي كل منها جزءاً تفصيلياً من العمل (مثال صنع العريبات) حيث يفقد الحرفي المنفرد قدرته، شيئاً فشيئاً، على ممارسة حرفته برمتها، ويكتسب من جهة ثانية مهارة أفضل في عمله الجزئي. وهكذا تنقسم كامل العملية إلى مكوناتها الجزئية.

٢. أو بأن يقوم العديد من الحرفيين بأداء أعمال متشابهة، أو القيام بنفس العمل على شكل جماعة موحدة في المعمل نفسه، ولكن عوضاً عن إنجاز الأعمال الفردية واحدة بعد أخرى من قبل شغيل واحد، يتم تجزئتها بشكل تدريجي إلى أن يجري تنفيذها من قبل عمال متعددين في وقت واحد (صناعة الإبر.. الخ) وبدلاً من أن يكون المنتج نتاج حرفي واحد، يصبح الآن نتاج عمل مجموعة من الحرفيين الذين لا يؤدي أحد منهم سوى جزء تفصيلي من العملية.

إن كل مجموعة من العمال، في المانيفاكتورة، تجهز المجموعة الأخرى بالمادة الأولية، وينجم عن هذا شرط أساسي، إذ يتوجب على كل مجموعة أن تنتج كمية معينة في وقت معين، فنحصل بذلك على استمرارية وانتظام وتناسق وشدة عمل من نوع مختلف تماماً عما يخلفه التعاون في الحرفة المستقلة. وهكذا نحصل على القانون التكنيكي لعملية الإنتاج: أن يكون العمل هو العمل الضروري اجتماعياً.

ظهرت الآلات بشكل ميكرو في مانيفاكتورة متفرقة -مطاحن الحبوب ومصانع الورق.. الخ.. ولكن الآلة كانت شيئاً ثانوياً. إن الآلة الرئيسية في المانيفاكتورة هي العامل الجماعي المندمج الذي يمتلك درجة من الكمال أعلى من العامل الحرفي المنفرد القديم. إن كل نواقص الحرفي التي تزداد وتتطور بالضرورة عند تقسيم العمل، تصبح في المانيفاكتورة الكمال بعينه.

وتخلق المانيفاكتورة فروقات بين العمال الجزئيين وتقسّمهم إلى عمال ماهرين وعمال غير ماهرين، بل إنها تؤسس نظاماً للمراتب وسلماً متدرجاً للأجور.

ففي هذه المرحلة الانتقالية ، نلاحظ تطوراً ونمواً للمدن وظهور التجار والصناعيين وأصحاب البنوك، والاكتشافات التكنولوجية المغازل الآلية - دواليب المياه - الأفران العالية والبارود والطباعة في أواسط القرن الخامس عشر .

فيما بعد تم إحراز نجاحات أخرى عززت تطور أسلوب الإنتاج الرأسمالي ضمن محورين أساسيين :

١. الكشوفات الجغرافية مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر.

٢. ترافق كل ذلك مع تغيرات ثقافية وفكرية رحبة كسرت الجمود الفكري اللاهوتي السائد ،

وأدت إلى " تهاوي استبداد الكنيسة في عقول الناس " .

وظهور مجموعات من المثقفين البرجوازيين قطعوا كل صلة لهم بالكنيسة واللاهوت الديني

المذهبي، وارتبطوا مباشرة بالعلم والفن ، وقد سمي هؤلاء بأصحاب النزعة الإنسانية

" HUMANISM " .

المسار الفكري التاريخي لعصر النهضة:

البدایات الأولى مع ميكافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧) وهو من أوائل المنظرين السياسيين البرجوازيين ،

حاول في مؤلفاته البرهنة على أن البواعث المحركة لنشاط البشر هي الأنانية و المصلحة المادية، وهو

صاحب مقولة: "أن الناس ينسون موت آبائهم أسرع من نسيانهم فقد ممتلكاتهم" ، إن السمة الفردية

والمصلحة عنده هما أساس الطبيعة الإنسانية؛ ومن جانب آخر فقد رأى أن القوة هي أساس الحق.

نيقولا كوبرنيكس (١٤٧٣ م . _ ١٥٣٢ م .): ساهم هذا المفكر في تحطيم الأيديولوجية

اللاهوتية القائمة على القول بمركزية الأرض في الكون وذلك عبر اكتشافه لنظرية مركزية

الشمس Helio Contricism التي قام على أساسها علم الفلك الحديث؛ وهذه النظرية من أهم منجزات

"كوبرنيكس" على الإطلاق وهي تستند إلى مبدئين: -

أولاً: ليست الأرض ثابتة في مركز الكون بل تدور حول محورها الخاص؛ وقد استطاع من خلال

ذلك تفسير تعاقب الليل والنهار. ثانياً: الأرض تدور حول الشمس مركز الكون.

-جوردانو برونو (١٥٤٨ م . _ ١٦٠٠ م .): فيلسوفاً وعالمياً فلكياً، قام بتطوير وتصحيح

نظرية كوبرنيكس، بدأ حياته راهباً وبسبب أفكاره المادية انفصل عن الكنيسة وتفرغ لنظرياته العلمية،

آمن بـ "لا نهائية" المكان أو لانهاية الطبيعة، ورفض مركزية الشمس في الكون مؤكداً على أن لا

وجود لهذا المركز إلا كمركز نسبي فقط "قشمنا ليست النجم الوحيد الذي له أقمار تدور حوله". لقد

حطم برونو التصورات القديمة عن العالم المخلوق ليجعل الكون ممتداً إلى ما لا نهاية وهو القائل بأن:

"الكلمة الأخيرة في كل مجال من مجالات المعرفة تكمن في العقل وحده" ؛ ألقي القبض عليه من قبل

محاكم التفتيش التي سجنته ثمانية سنوات أحرقوه بعدها على أحد أعمدة التعذيب بعدما رفض إنكار

فلسفته وتوجهاته العلمية.

ليوناردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩)، وضع العديد من التصاميم للأجسام الطائرة .

جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢) ، صمم تلسكوب بنفسه كان لاكتشافاته في علوم الفلك دوراً كبيراً. يعتبر جاليليو من أبرز مفكري ذلك العصر الذين صاغوا النظرة الدينية deism إلى الطبيعة التي اعتنقها عدد من فلاسفة ومفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ أسهمت هذه النظرة إلى جانب أصحاب النزعة الإنسانية والفلسفة البانتينية (وحدة الوجود) في تعزيز وتطور الفلسفة العقلانية والمنهج المادي العلمي كمنطلقات أساسية لعصر النهضة.

ثانياً: المرحلة التاريخية الثانية أو تطور الفلسفة الأوروبية في عصر الثورات البرجوازية أواخر القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر :- أدى تفسخ العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في النظام الإقطاعي الأوروبي إلى تغيير كبير في الدور الذي يلعبه الدين في المجتمع. وفي ضوء هذا التطور الذي أصاب كل مناحي الحياة في عصر النهضة، رفع فلاسفة هذا العصر رغم الاختلافات بين مذاهبهم شعار "العلم" من أجل تدعيم سيطرة الإنسان على الطبيعة ورفض شعار العلم من أجل العلم.. لقد أصبحت التجربة هي الصيغة الأساسية للاختراعات والأبحاث العلمية التطبيقية في هذا العصر وأبرزها:

• صياغة القوانين الأساسية للميكانيك الكلاسيكي بما فيها قانون الجاذبية الذي وضعه نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) .

• تطوير علوم الرياضيات والهندسة والفيزياء والأحياء_ ديكارت ولايبنتز.

• اكتشاف الدورة الدموية- هارفي - " تأكيد اكتشاف ابن النفيس".

• قوانين الميكانيك وتعريف مفهوم العنصر الكيميائي_ بويل.

• ميزان الحرارة الزئبقي والضغط الجوي_ تورشيللي (أحد تلامذة جاليليو).

لم يكن سهلاً لهذه الاكتشافات العلمية وغيرها أن تكون بدون تطور الفلسفة عموماً والمذهب التجريبي على وجه الخصوص ، في سياق الحراك والتناقض والصراع الاجتماعي الدائم والمستمر بوتائر متفاوتة في تسارعها بين القديم والجديد ، إذ أنه بدون هذه الحركة والتناقض لم يكن ممكناً بروز الدعوة من أجل التغيير والتقدم التي عبر عنها فلاسفة عصر النهضة في أوروبا أمثال فرنسيس بيكون، ديكارت، هوبس، لايبنتز، سبينوزا.

- فرنسيس بيكون (١٥٦١ م _ ١٦٢٦ م) :فيلسوف انجليزي "أول من حاول إقامة منهج

علمي جديد يرتكز إلى الفهم المادي للطبيعة وظواهرها" ؛ وهو مؤسس المادية الجديدة والعلم التجريبي وواضع أسس الاستقراء العلمي؛ فالغرض من التعلم عنده زيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة وهذا لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التعليم الذي يكشف العلل الخفية للأشياء.

لقد شك بيكون في كل ما كان يظن "أنه يقين حق" غير أن الشك عنده لم يكن هدفاً بذاته بل وسيلة

لمعرفة الحقيقة؛ وأول خطوة على هذا الطريق تنظيف العقل من الأوهام الأربعة "أوهام بيكون"

- رينيه ديكارت (١٥٩٦ م _ ١٦٥٠ م) : وهو فيلسوف فرنسي وعالم رياضيات وفيزيائي وعالم فسيولوجيا، كان "ديكارت" في مبحث المعرفة مؤسس المذهب العقلائي ، هذا المذهب الذي يرتكز عنده على مبدأ الشك المنهجي أو الشك العقلي "الشك الذي يرمي إلى تحرير العقل من المسبقات وسائر السلطات المرجعية" ومن سلطة السلف ، الشك الذي يؤدي إلى الحقيقة عن طريق البداهة العقلية كالحدس _ التحليل _ التركيب.

لقد أقام "ديكارت" وفق أسس الشك المنهجي والبداهة العقلية؛ يقينه الأول من مبدأه البسيط الذي عرفناه من خلاله "أنا أفكر.. أنا موجود" ، هذا المبدأ الأول هو بداية كل فكر عقلائي وهو ما سنجد مضمراً وصريحاً في الفلسفة العقلانية من ديكارت إلى ماركس.

- توماس هوبز (١٥٨٨ م _ ١٦٧٩ م) : أحد فلاسفة القرن السابع عشر ، تأثرت فلسفته المادية بالثورة البرجوازية الإنجليزية ضد الأرستقراطية الإقطاعية في تلك المرحلة؛ رفض هوبز في مذهبه في القانون والدولة نظريات الأصل الإلهي للمجتمع.

- جوتفريد فيلهلم لايبنتز (١٦٤٦ م - ١٧١٦ م) : وصل من خلال اللاهوت "Theology" إلى مبدأ الترابط المحكم (الشامل والمطلق) بين المادة والحركة "بعكس" ديكارت" الذي يقول: بجوهرين مستقلين مادي وغير مادي؛ إلتزم بمبدأ التجريبية في المعرفة التي تعتبر الأحاسيس شيئاً لا غنى عنه للمعرفة.

في مؤلفه "العدالة الإلهية" .. حاول أن يبرهن فيه على أن عالمنا الذي خلقه الله هو بالرغم مما فيه من شرور، أحسن العوالم الممكنة، فما نراه من شرور هو شرط ضروري في رأيه للتناسق في العالم ككل ، في رأينا إن جوهر هذه الفلسفة هو الاستسلام للأمر الواقع ، وهو يقترب من فلسفة " ليس في الإمكان أبدع مما كان" ، وهذه المقولة لا تختلف في جوهرها عن المقولة التراثية الإسلامية " لو اطلعت في الغيب لاخترتم الواقع".

- باروخ سبينوزا (١٦٣٢ م - ١٦٧٧ م) : وهو يهودي هولندي.. تشكل فلسفته أحد الاتجاهات الرئيسية في مادية القرن السابع عشر؛ وقد أكد على أن الفلسفة يجب أن تعزز سيطرة الإنسان على الطبيعة.. دحض سبينوزا افتراءات رجال الدين اليهود عن "قدم التوراة" وأصلها الإلهي.. فهي ، أي "التوراة" كما يقول ليست وحيّاً إلهياً بل مجموعة من الكتب وضعها أناس مثلنا وهي تتلاءم مع المستوى الأخلاقي للعصر الذي وضعت فيه.. وأنها "سمة لكل الأديان" حول الحكم يعتبر "سبينوزا" أن الحكم الديمقراطي هو أرفع أشكال الحكم بشرط أن يكون تنظيم الدولة موجهاً لخدمة مصالح كل الناس.

- جون لوك (١٦٣٢ م . - ١٧٠٤ م .) : من كبار فلاسفة المادية الإنجليزية، وقد برهن على صحة المذهب الحسي المادي الذي يرجع جميع ظروف المعرفة إلى الإدراك الحسي للعالم الخارجي.

رفض وجود أية أفكار نظرية في الذهن.. فالتجربة بالنسبة له هي المصدر الوحيد لكافة الأفكار!!.. وحول فلسفته يقول ماركس: "لقد أقام لوك فلسفة العقل الإنساني السليم.. أي أنه أشار بطريقة غير مباشرة إلى أنه لا وجود لفلسفة إلا فلسفة البصيرة المستندة إلى الحواس السليمة".

- جون ستيوارت مل (١٦٣٢-١٧٠٤): قال بأن جميع أشكال المعرفة تعود إلى الإدراك الحسي المادي للعالم الخارجي .

التنوير الفرنسي والفلسفة الألمانية في القرن الثامن عشر:-

أولاً : التنوير الفرنسي :شهدت فرنسا قبيل الثورة البورجوازية الفرنسية (١٧٨٩) بأربعة عقود حركة فكرية واسعة وقوية عرفت "بحركة التنوير" ، وضع رجالها نصب أعينهم مهمة نقد ركائز الأيديولوجية الإقطاعية، ونقد الأوهام والمعتقدات الدينية والنضال من أجل إشاعة روح التسامح الديني وحرية الفكر والبحث العلمي والفلسفي وإعلاء شأن العقل والعلم في مواجهة الغيبية.

- شارل مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) : صاحب كتاب "روح القوانين".. يرى أن الضمانة الأساسية للحرية في المؤسسات الدستورية التي تحد من العسف وتكبحه ، يرى في التفاني وإخلاص كل فرد وتضحيته من أجل المصلحة العامة ، القوة المحركة في النظام الديمقراطي وأساس ازدهاره . ومن أهم آرائه ، رأيه في الحكم المطلق الذي يعتبره شكلاً مناقضاً للطبيعة الإنسانية ومناقضاً للحقوق الشخصية وحصانيتها وأمنها.

- فرانسوا فولتير (١٦٩٤م. - ١٧٧٨م.) : عاش كل حياته مناضلاً ضد الكنيسة والتعصب الديني وضد الأنظمة الملكية وطغيانها؛ رفض فولتير جميع تعاليم الديانات _الإيجابية_ في صفات الله لكونها تفتقر إلى البرهان.

- جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) :من الذين نادوا بالمصالح البرجوازية ضد الإقطاع ، فقد ناضل روسو ليس فقط ضد السلطة الإقطاعية بل كان مستوعباً لتناقضات المجتمع الفرنسي أكثر من غيره؛ فقد وقف مع وجهة نظر البرجوازية الصغيرة "الراديكالية" والفلاحين والحرفيين.. وكان موقفه أكثر ديمقراطية من معاصريه.

ففي كتابه "العقد الاجتماعي" يحاول روسو البرهنة على أن الوسيلة الوحيدة لتصحيح التفاوت الاجتماعي هي في ضمان الحرية والمساواة المطلقة أمام القانون.

- ديني ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) :من أبرز وجوه الماديين الفرنسيين على الإطلاق.. ينطلق في أفكاره من القول بأزلية الطبيعة وخلودها فليست الطبيعة مخلوقة لأحد ولا يوجد سواها أو خارجها شيء مطلق؛ وقف ضد التفسير المثالي اللاهوتي للتاريخ الإنساني ليؤكد مع زملائه الماديين الفرنسيين أن العقل الإنساني وتقدم العلم والثقافة هي القوة المحركة لتاريخ البشرية.

يرى أن الطريق إلى الخلاص من عيوب أشكال الحكم القائم لا يمر عبر الثورة بل من خلال إشاعة التنوير في المجتمع.

ثانياً : الفلسفة الألمانية:

- **عمانويل كانت** (١٧٢٤ - ١٨٠٤) : من مؤلفاته انطلق من نظريته عن "الأشياء في ذاتها" والظواهر؛ إلى القول: أن هناك عالم مستقل عن الوعي (الحواس ، الفكر) ، وهو عالم الأشياء التي يسميها "الأشياء في ذاتها" والعالم المستقل عن الوعي هو العالم الموضوعي.

عارض مزاعم الإقطاع الألماني في "أن الشعب لم ينضج بعد للحرية؛ مبيناً أن التسليم بصحة هذا المبدأ يعني أن الحرية لن تأتي في يوم من الأيام".

إن "كانط" يفهم الحرية المدنية على أنها حق الفرد في عدم الامتثال إلا للقوانين التي وافق عليها مسبقاً واعترف بمساواة جميع المواطنين أمام القانون.

- **جورج ويلهلم فريدريك هيغل** (١٧٧٠ - ١٨٣١) : تكمن مآثرته التاريخية العظيمة في أنه كان أول من نظر إلى العالم الطبيعي والتاريخي والروحي بوصفه عملية؛ أي في حركة دائمة وفي تغير وتطور. لقد صاغت فلسفة "هيغل" بشكل منظم النظرة "الديالكتيكية" إلى العالم.

- **نقطة الانطلاق في فلسفة "هيغل"** : إن الوحدة الأولية التي تشكل الأساس الجوهرى للعالم هي: "وحدة الوجود والفكر" ، يرى "هيغل" أن الفكر "يغير" وجوده إلى شكل مادة، طبيعة.. وهي وجود آخر لهذا الفكر القائم موضوعياً والذي يسميه هيغل "بالفكرة المطلقة"؛ وهكذا إن العقل ليس ملكة خاصة بالإنسان بل هو الأساس الأوّلي للعالم، ولذا فإن العالم يتطور وينمو وفقاً لقوانين الفكر أو العقل.. وبهذا يكون الفكر أو العقل عند هيغل هو الجوهر المطلق _المستقل عن الإنسان والإنسانية_ للطبيعة والإنسان والتاريخ العالمي؛ وأن هذا الفكر كماهية جوهرية موجودة لا خارج العالم بل في العالم ذاته بوصفه المستوى الداخلي لهذا العالم.

إن المساهمات الرئيسية للديالكتيك الهيجلي يمكن تلخيصها في:

١. ترابط الأشياء فلا يمكن قبول أي حدث بمعزل عن الأحداث الأخرى.
٢. رفض المنهج الميتافيزيقي الذي ينظر إلى الأشياء بعزلها عن بعضها البعض، فعلى سبيل المثال ليس هناك شيء اسمه "الطبيعة الإنسانية" في حد ذاتها _أي موجودة في خارج الإنسان_ بل هناك طبيعة إنسانية في هذا الموقف أو ذلك.
٣. يدعوننا إلى النظر إلى الأشياء كافة لا كأشياء جامدة لا تتحرك ولكن أن ننظر إليها كأشياء سبق أن كانت أشياء أخرى وستكون في المستقبل شيئاً جديداً مختلفاً فليس هناك من شيء دائم؛ كل شيء في مرحلة انتقال وفي تطور دائم .. هذه هي عظمة المنهج الجدلي عند هيغل.

بعد هيجل اختلف الكثيرون حول فلسفته وبرز تيارين رئيسيين انعكاساً لها أو دفاعاً عنها؛ تيار يميني دعي ممثلوه بالهيجليين الشيوخ الذين تمسكوا بالأيدولوجية الإقطاعية/ المسيحية ضد التيار اليساري أو الهيجليون الشباب.

حركة الهيجليين الشباب التي لعبت دوراً تقدماً في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وكان ماركس أحدهم.

- **لودفيج فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢):** كان هدف فيورباخ تحرير الإنسان من الوعي الديني؛ وفي مؤلفه "نقد فلسفة هيجل" أعطى حلاً مادياً للمسألة السياسية في الفلسفة وهذا الحل يرتكز على اعتبار الطبيعة، أو الوجود، أو المادة واقعاً ينشأ عنه بالضرورة العقل المفكر. اقترب في أواخر حياته من الاشتراكية العلمية خصوصاً بعد أن قرأ رأس المال.

وفي رأيه إذا كان الدين يعد الإنسان بالنجاة بعد الموت فإن الفلسفة مدعوه لتحقيق على الأرض ما يعد به الدين في عالم الغيب.. أي أن على الفلسفة أن تلغي الأوهام الدينية لتوفر وتعطي الإنسان القدرة على معرفة إمكانياته الحقيقية في بلوغ السعادة.

المقدمات الأيدولوجية لظهور الماركسية :

كان ديكارت وبابيف وديدرو وفولتير من أبرز أسلاف الفلسفة الماركسية، باعتبارهم من أهم رموز عصر النهضة الذين مهدوا أيدولوجياً للثورات البرجوازية في أوروبا في القرنين ١٧ و ١٨ ، كذلك فإن المفكرين الاجتماعيين مثل هوبز / لوك / مونتسكيو / وروسو ، كانوا جميعاً من هؤلاء الأسلاف العظام، فقد كانوا رموز عصر التنوير وأنصار العقلانية الذين وجهوا نقداً عنيفاً للأنظمة الإقطاعية ، وأعلنوا ضرورة إشاعة الحريات المدنية والمساواة بين الناس .. لقد زرعوا بذور التغيير وساهموا في إنضاجها.

مصادر الفلسفة الماركسية :

أولاً : الفلسفة الألمانية:

• **هيجل :** (١٧٧٠ - ١٨٣١) أبرز رجالات الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، وقد بلغت هذه الفلسفة ذروتها في مذهبه الذي تكمن مآثرته التاريخية في أنه كان أول من نظر إلى العالم ، الطبيعي والتاريخي والروحي بوصفه عملية ، أي في حركة دائمة ، في تغير وتطور ، إنها عملية دياكتيكية ، وهو أول من أعطى صياغة دقيقة لقوانين الديالكتيك الأساسية ، لكنه رغم ذلك وقف على أرضية المثالية الفلسفية الخاطئة .

• **لودفيج فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢)** لعبت فلسفته المادية دوراً هاماً في وضع ماركس وانجلز للرؤية المادية ، لقد وجه فيورباخ نقداً عنيفاً للمثالية الهيجلية ، لكنه عموماً ظل مادياً ميتافيزيقياً ، بسبب أن ماديته لم تتفهم القيمة العلمية لديالكتيك هيجل ، كذلك لم يدرك حق الإدراك ماهية الإنسان ، فاعتبره كائناً بيولوجياً فقط ، ولم يتبين الجانب المادي من العلاقات الاجتماعية .

ثانياً : الاقتصاد السياسي الانجليزي :

من المصادر أيضاً النظريات الاقتصادية التي وضعها كل من آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وديفيد ريكاردو (١٧٧٢ - ١٨٢٣) وخاصة نظرية القيمة - العمل التي كان لها أهمية بالغة في تكون المذهب الفلسفي الماركسي ، إن نظريتهما أوضحت ولأول مرة أهمية الأساس الاقتصادي لنشاط الناس ، كما بينا أن تطور المجتمع يركز إلى التفاعل الاقتصادي بين الناس، لكنهما (سميث وريكاردو) كونهما من المدافعين عن الرأسمالية ، عملا على تبرير استغلال الرأسماليين للعمال ، وصورا هذا الاستغلال تفاعلاً بين شريكين متكافئين في إطار علاقات السوق ، أما الربح فاعتبراه مكافأة للرأسمالي على تنظيم الانتاج وإدارته ، المهم أن مذهبهما الاقتصادي كان منطلقاً للبحث اللاحق للعلاقات الاقتصادية وللكشف عن التناقض بين العمل والرأسمال من حيث هو التناقض الأساسي في المجتمع البرجوازي .

ثالثاً : الاشتراكية الطوباوية :

من المصادر أيضاً ، الأفكار الاشتراكية الطوباوية ، وأهم الرموز : سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) وفورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) وروبرت اوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) ، وقد لعبت هذه الأفكار دوراً هاماً في التمهيد لظهور الفلسفة الماركسية ، وخاصة المادية التاريخية ، لقد ارتكزت أفكار هؤلاء الرواد على مطالباتهم بضرورة انتشار الملكية العامة (الجماعية) والعمل الجماعي ، بما يسمح بالقضاء على بؤس الجماهير ، لكنهم لم يروا السبل المؤدية إلى التحول الاشتراكي وأنكروا دور الثورة والصراع الطبقي أو لم يفهموه ، واعتبروا أن الطريق إلى الاشتراكية يمر عبر التنوير وتعاون الطبقات ، وهو أمر مستحيل ، تلك هي مثالياتهم.

على ضوء الانجازات النظرية لأبرز رجالات الفلسفة والاقتصاد السياسي ، والاشتراكية الطوباوية، وضع ماركس وانجلز نظرية فلسفية جديدة كل الجدة تجمع لأول مرة في تاريخ العلم بين المادية الفلسفية والمنهج الديالكتيكي ، وتعطي تفسيراً علمياً لحياة المجتمع البشري ، وبفضلهما تحول العلم الفلسفي ليصبح أداة بيد الطلائع المثقفة والقوى الكادحة والبروليتاريا في نضالها لتغيير العالم.